ع. ع. محمد

يصطحبك لملاقاة

عدوك اللدود

العدو اللدود

عدوك اللدود

عبدالهادي عاصم محمد

٢٠٢١

نشر إلكتروني / قصة قصيرة / نفس

للمزيد

صفحة ع. ع. محمد

ع. ع. محمد

العدو اللدود

أتعامل يوميا مع الكثيرين، لكن تلك الحالة تحديدا تجعلني أشعر أنني لا أفقه شيئا في علم النفس .. تبسمت في وجهه، وبدأت الكلام:

- هل تشعر أنك أفضل؟

- نعم .. لقد تحسنت كثيرا يا دكتور .. شكرا لك.

- جيد جدا .. ألا زلت تفكر في خطيبتك؟

- مستحيل .. لقد تركتني في مرضي .. كيف أفكر بها الآن وقد تعافيت؟

- لكنك لم تخبرني من قبل أنها تركتك وأنت مريض .. هل تكذب ثانية؟!

- لا، لقد توقفت تماما عن الكذب، وما أخبرك به الآن هو الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة.

- إذن أخبرني .. لماذا تركتك خطيبتك؟

- تعرف أنني كنت مصابا بسرطان الدم .. لقد أصبحت هزيلا، وبدأ شعري يتساقط بسبب العلاج ..

- نعم .. كما أخبرتني أنك علمت بوفاة أبيك بعد إنهاءك للخدمة العسكرية.

- بالضبط .. أي أنه لم يبق لي سوى أمي، وهي امرأة مسنة .. أمي ..

زاغت عيناه، وبدأ يتعرق .. سألت:

- هل أنت بخير؟!

وارى توتره بابتسامة متكلفة، ثم أكمل:

- نعم .. كما كنت أقول، أمي امرأة مسنة لا تعمل، لكنها تنفق من معاش أبي ..

- وكيف تركتك خطيبتك في مثل تلك الظروف؟!

- بكل بساطة .. زارتني في المستشفى وأخبرتني أنها لن تتحمل البقاء مع شخص فاشل.

- يا لها من قسوة! قالت أنك فاشل بسبب مرضك؟

- لا، كانت تعلم أنني أتعافى لكنها لم ترغب في البقاء معي، لأنني لست محظوظا في حياتي العملية.

- ألم تخبرني أنك كنت الأول على دفعتك في الكلية؟!

- نعم .. كنت أفضل طالب، وتخرجت الأول بالفعل، لكن شعر أعضاء هيئة التدريس بالغيرة فرفضوا تعييني كمعيد بالكلية ..

- ولماذا لم تعمل في وظيفة أخرى؟!

- تم تجنيدي لتأدية الخدمة العسكرية، وبالطبع مع مرور الوقت نسيت تقريبا كل ما تعلمت .. لكنني عدت للمذاكرة من جديد فور انهاء خدمتي، وأخذت كورسات في المحاسبة .. ذهبت للكثير من مقابلات العمل لكنهم رفضوني ..

كنت أشعر أنه يكذب، فواجهته:

- هل أنت صادق فيما تقول؟

- نعم يا دكتور .. ولماذا سأكذب عليك؟

- ربما أنت لا تعرف عاقبة الكذب وما يترتب عليه!

- بلى، أعرف .. لقد تلقيت دورتين في علم النفس، وقرأت الكثير من الكتب والأبحاث.

- إذن أنت تعرف أن المرحلة الأولى هي الاستمتاع بالكذب على من حولك ..

- .. نعم، والمرحلة الثانية هي تصديق تلك الكذبات والاقتناع بها تماما

- وهل تعرف المرحلة التالية؟ إنها الأشد خطورة ..

فجأة سمعنا صوت ارتباك من مكان قريب، وظهر شخص تبدو على وجهه أمارات الشر .. بدا كأنه ظهر من العدم .. اقترب من الحالة ووضع سكينا على رقبته .. وصرخ بطريقة هستيرية:

- إنه يكذب .. لقد كذب في كل ما يقول ..

بدا متوترا، والسكين يهتز في يده .. أخشى أن يطعنه .. توجهت إليه بالكلام، وعيني على السكين:

- أرجوك، إهدأ .. ماذا تريد؟!

- لا أريد شيئا سوى التخلص من هذا الشيطان .. إنه شخص فاشل، وكاذب .. ولا يستحق العيش ..

رمقت الحالة بطرف عيني .. يجلس مسترخيا كأنه ليس هناك سكين على رقبته .. وهو محق في ذلك، فقد يحدث ما لا يحمد عقباه إذا حاول المقاومة .. تكلمت من جديد:

- لماذا لا تترك السكين وتهدأ قليلا؟ لقد أخبرني أنه توقف عن الكذب، وسيبدأ حياة جديدة!

ظهر الغضب على وجهه، وشدد قبضته على السكين، وصرخ:

- وهل صدقته؟ لقد أخبر مئات الأشخاص بهذه الكذبة؛ كذب على أبيه، وأمه، وعلى خطيبتي .. كذب على كل من عرفهم ..
- خطيبتك؟!
- بالطبع هو لم يخبرك أن الفتاة التي خطبها، ثم تركها، كانت خطيبتي أنا، وتركتني من أجله .. علمتُ دوما أنه كاذب، لكن أجبرت نفسي على التصديق؛ صدقت أنه قد يتغير هذه المرة من أجلها .. صدقت أنه سيجعلها سعيدة .. وضحيت من أجلهما وفي النهاية تركها ..
- أنا لا أفهم! ألم تتركه هي عندما كان مريضا؟!
- هل هذا ما أخبرك به؟ هذه الكذبة وحدها تجعلني أشق عنقه دون أدنى ذرة ندم ..

أغمض عينيه، وبدأ بضغط السكين على رقبة الحالة، وهو يصرخ .. لم يبد أنه من النوع الذي يقتل؛ إنه فقط مهتاج قليلا .. فكرت أن أتركه حتى يدرك أنه ليس أمرا سهلا، فيتوقف من نفسه، لكن ظهرت آثار السكين على رقبة الرجل، وبدأ يتألم بالفعل .. المنظر وحده جعلني أشعر بالألم. صحت مهدئا:

- فلننسى ما أخبرني به .. أخبرني أنت بالحقيقة ..

رمقني بنظرة متفحصة .. حاولت الابتسام قدر ما يسمح به الموقف، لأجعله يطمئن. رفع يده وبدأ يسرد:

- لقد حضرت إليه خطيبته في المصح وأخبرته أن أهلها يلحون عليها كي تتركه، لكنها مستعدة للتضحية بكل شيء من أجله، وأنها ستنتظره حتى يتعافى ..

فتح الحالة عينيه وتغيرت ملامح وجهه، وبدا كأنه يجاهد ذكرى ما .. صاح الآخر متلذذا بمنظر الألم في عيني غريمه:

- انظر إليه .. لقد صدق الكذبة .. إنه يظن حقا أنها هي من تركته، وتخلت عنه ..

اقترب من وجهه، وابتسم ابتسامة مرعبة، وهو يهمس:

- أنت مجنون .. وفاشل .. وكاذب .. وسأنهي حياتك الآن ..

رفع السكين واستعد ليغرزها في صدر الحالة .. لم يكن هناك أحد بالقرب يمكنني الاستعانة به .. وكنت اخشى لو اقتربت منه أن يصيبني أنا بالسكين .. صحت به محاولا إلهائه:

- انتظر .. هل قلت المصح وليس المشفى؟!

- مستشفى؟!

ضحك بطريقة هستيرية، ثم قال وهو يغالب الضحك:

- انتظر .. لا تقل! هل أخبرك أنه كان مصابا بالفيروس الوبائي أم بسرطان الدم؟ اه عرفت .. لابد أنه أخبرك بقصة المرض النادر الذي يصيب المخ .. أليس كذلك؟

توقف عن الضحك، وتغيرت نبرة صوته، وأردف:

- أخبرتك أنه مجنون لعين لا يتوقف عن الكذب!

ملامح وجهه مكتسية بالاحمرار من شدة الغضب، والسكين في يده يحوم حول رقبة الحالة، والذي كانت أسنانه تصطك ببعضها، وعيناه ترمشان بسرعة .. بدا أنه على وشك الدخول في حالة صرع .. قلت:

- أرجوك .. تكلم دون أن تصفه بالجنون .. لقد دخل في صراع نفسي ..

اقترب من أذنه وتغنى:

- مجنون .. مجنون ..

يبدو هو الأشد جنونا في تلك اللحظة .. قلت:

- أخبرني .. لماذا دخل المصح؟!

حول نظره إلي مدهوشا، وقال باستنكار:

- لأنه مدمن حقير!

لم أتكلم، فواصل هو:

- عندما عرض عليه أساتذته في الكلية أن يجدوا له عملا في أحد المكاتب شعر بالإهانة ورفض .. ولاحقا عندما لم يجد عملا، حبس نفسه في المنزل وبدأ بتعاطي المخدرات.

- أعتقد أنك مخطئ؛ لقد كان أساتذته يغارون منه، لذا رفضوا تعيينه في الكلية ..

اقترب مني وهو يلوح بالسكين .. وقال:

- تعيين؟ تعيين بدرجة مقبول؟! يبدو أنك أنت أيضا مجنون، أو أنك مثله؛ كاذب يتوهم أشياء لم تحدث ..

شعرت أنني تسرعت فقلت:

- إذن احك لي .. يبدو أنك صادق وتعرف عنه الكثير ..

هدأ قليلا، وأنزل السكين، وبدأ بالحديث:

- نعم .. أعرف الكثير عنه .. فقد .. فقد كنت صديقه المقرب .. نصحته كثيرا أن يتوقف عن الكذب؛ أن يتوقف عن أحلام اليقظة، ويبدأ بالسعي ليصل إلى ما يريد .. لكنه في كل مرة كان يصر على الكذب، في البداية بدا الأمر مسليا؛ الجميع يصدقونه فيما يقول ويعجبون به .. كل مرة يتعرف بأشخاص جدد تبدأ الأكاذيب؛ مرة أبوه

سكرتير مكتب الوزير، ومرة يعيشون في أمريكا لكنه حضر من أجل الدراسة وسيعود في العطلة، ومرة يخبرهم أنه يقوم بعمل مشروع كبير تحت إشراف الحكومة ويحتاج لشركاء ..

- ولماذا يخبرهم بذلك؟ هل يأخذ منهم نقودا؟!

- لا .. كل ما يريده هذا الحقير هو الشهرة؛ يريد أن ينظر إليه الجميع بإعجاب .. يعتقد أنه أفضل من غيره .. مع الوقت بدأ الجميع يكتشف كذبه ولم يعد أحد يصدقه، لم يعد له أصدقاء .. حتى ظهرت هي ..

- تقصد خطيبته؟

- .. كنا في الجامعة حينها .. كانت تعرف أنه كاذب، لكنها حاولت مساعدته .. لقد حاولت حقا .. وأنا كنت موجودا، وأشهد على ذلك .. أخبرتْه أن عليه البحث عن عمل بعد الكلية، حتى أنها ساعدته في الحصول على عمل بالفعل، لكن تركه بعد أقل من شهر، أتعرف لماذا؟!

- لماذا؟!

- أخبرها أنه عمل وضيع، وأقل من مستواه، لكنها لم تيئس منه .. حاولت أن تعرف ما هو العمل الذي يناسبه. رغم أن الجميع نصحها بالابتعاد عنه، لكنها رأت فيه ما لم يره غيرها .. رأت فيه إنسانا ..

بدأ الحالة يبكي وينتفض .. نظر إليه باحتقار وأكمل:

- لو كنت مكانه لفعلت أي شيء لأحافظ عليها .. كنت سأرضى بأي وظيفة، وأتدرب حتى أصير أفضل .. وأثبت لها أنني أستحقها، إنها إنسانة جيدة .. كم تمنيت لو كانت خطيبتي أنا ..

- ألم تقل أنها كانت خطيبتك وتركتك من أجله؟!

بدا عليه الارتباك، وابتسم الحالة .. أجاب:

- قصدت أنها كان من الممكن أن تكون خطيبتي لولاه ..

لم أكن أعرف من منهما صادق .. أو بالأحرى ما مقدار الصدق في رواية كل منهما .. أكمل:

- كانت رائعة في كل شيء، ولم تتركه يوما .. أنهى خدمته العسكرية، واكتشف أن أبيه قد توفي، ولم يجد عملا، وبدأ يدخل في حالة اكتئاب، ورغم كل ذلك بقيت بجانبه، وربطت حياتها به، لكنه لم يشعر حتى بوجودها .. بدأ بتعاطي المخدرات، وساءت حالته كثيرا .. ساعدَت أمَه على جمع المال لوضعه في مصح لعلاج المدمنين القذرين أمثاله ..
- أرجوك لا تستخدم ألفاظ ..
- اخرس، هذا أقل ما يمكن قوله .. بعد كل ما فعلت من أجله، صرخ فيها وطلب منها أن تتركه، وأخبرها أنها هي السبب في كل ما هو فيه ..

فجأة انتفض الحالة وفتح عينيه .. همهم:

- لا، لم يحدث .. هي التي تركتني ..

أمسك به بقوة ووضع نصل السكين مباشرة على صدره .. وصرخ به:

- ألن تتوقف عن الكذب؟ بعد كل ما مررنا به؟ قل الحقيقة ..

بدأ بالانتفاض من جديد .. واصل صاحب السكين:

- قل الحقيقة ..

- لقد أخبرتها بالفعل أنها السبب فيما وصلت إليه، وطلبت منها ألا تعود من جديد .. لكن فعلت هذا لأنني لم أرد لها أن تربط حياتها بشخص مثلي ..

- تقصد بفاشل، مجنون، كاذب مثلك ..

- لقد شعرت بوجودها بالفعل، وليس كما قلت أنت .. أنا لدي مشاعر .. أنا إنسان ..

- فات الآوان، لقد ضاع عمرك .. وأضعت من بين يديك الوحيدة التي كانت تصدق أنك إنسان ..

- لا، الآوان لم يفت، سأبدأ من جديد، أنا لا زلت صغيرا، و ..

ألقى السكين من يده وقبض على رقبة الحالة .. أبعدتها برجلي، وأمسكت بذراعه .. حاولت إبعاده، لكن قبضته كانت محكمة .. فجأة هدأت الأصوات من حولنا، وأظلم المكان، وتوقفت حركة الرياح .. أفلتَه من بين يديه، وسكنَّا جميعا في أماكننا في انتظار ما سيحدث .. لكن لم يحصل شيء .. تخلى عن فكرة الخنق، وتوجه إلي بالكلام:

- إنه لم يتغير يا دكتور؛ سيواصل خداع نفسه، ومن حوله بنفس الكذبة .. سأبدأ من جديد، سأصلي، وأدعو الله، سأحصل على وظيفة .. نفس الكلام وفي كل مرة يعود من جديد إلى الحضيض .. شخص مثل هذا يجب أن يموت ..

بعدما ألقى السكين من يده، شعرت أنه يمكنني التكلم بحرية .. فقلت:

- لكنه محق، إنه صغير ويمكنه أن يبدأ من جديد .. أقصد يصالح خطيبته، وربما يصدق تلك المرة ..

- هل أنت مجنون؟ من هو الصغير؟! أتعرف كم عمره؟ ألا يرى أحد الحقيقة سواي؟!

- لا أعرف، إنه يبدو شابا صغيرا!

- انظر إلى ملامحه جيدا، كم تعتقد مر على تركه لخطيبته؟

- ربما .. سنتين، أو ..

- خمسة عشر عاما .. لقد مرت خمسة عشر عاما ..

- ماذا؟!

- في كل مرة يخرج من المصح، ويخبر من حوله أنه سيتغير، ثم يعود من جديد، وتجمع أمه المال لتعيده للمصح مرة أخرى، وتتكرر نفس القصة

كل مرة .. لكن الأمر مختلف هذه المرة، أتعرف لماذا؟ بالتأكيد هو لم يخبرك؟!

- يخبرني بماذا؟!

- لقد ماتت أمه بالأمس .. نعم .. ذهبت إلى عمه كي يساعدها في دفع مصاريف دخوله المصح للمرة الألف، فأشفق عليها ونصحها أن تنسى أمره، وتعتبره ميتا .. لم تستطع تحمل الكلمة؛ ماتت من ليلتها!

ألقى الحالة بنفسه إلى الأرض، وبدأ جسمه يتشنج .. اقترب منه وهمس في أذنه:

- ماتت بالحسرة عليك .. أنت قتلت أمك؛ ماتت لأنها علمت أن عمك محق، وأنك مت منذ زمن بعيد .. أدركت أنها كانت تخدع نفسها ..

قلت:

- أرجوك، ابتعد عنه، يكفي ما هو فيه!

ابتعد عن الحالة وهو يبتسم .. ثم قال:

- أتعرف؟! انت محق، أنا لن أقتله .. يكفي ما هو فيه ..

غادر المكان، واعتدل الحالة .. بدأ بالحديث من جديد:

- لا تصدقه يا دكتور، إنه يكذب، أمي لم تمت إنها حية، سأذهب إليها وأطلب منها أن تخطب لي الفتاة التي ترضى، وبعد ذلك سأذهب للعمل بأي مكان، وفي خلال عام واحد من الآن سأذكر هذا اليوم وأضحك.
- لا تواصل خداع نفسك، أنت تعرف أن أمك ماتت بالفعل، وحياتك لم يعد لها معنى ..
- لا، أرجوك يا دكتور، أنا يمكنني أن أتغير، يمكنني أن أصبح شخصا اخر، لا تفعل مثله ..

- مثل من؟!

- هذا الرجل الذي حاول قتلي .. الذي كان هنا!

- لا يوجد هنا أحد سواك؛ فقط أنت!

- لكنك رأيتَه ..

- رأيتُهُ فقط لأنك رأيته ..

- لا أفهم!

- ألم تخبرني أنك قرأت الكثير من الكتب في علم النفس؟!

- نعم، وتلقيت دورات ..

- هل تعلمت ما يكفي لتنادي نفسك بلقب دكتور؟ هل تعتقد أنه يمكنك علاج نفسك؟! تعتقد أنه يمكنك أن تصبح شخصا طبيعيا؟ هل تظن أن وفاة أمك ستجعلك تتغير حقا؟ هل تظن أنه يمكنك أن ترضيها بعد موتها؟

- أنا خائف!

- يجب أن تكون خائفا .. أنت تقف أمام المرآة تمسك بيدك سكينا، وتحاول خنق نفسك .. أنت مجنون ..

- أنا لست مجنونا، ولست فاشلا ..

- أنت كاذب .. لن تتوقف عن خداع نفسك!

- سأتوقف عن الأحلام وأبدأ حياة جديدة، سأتغير، سأرضي أمي ..

أمك ماتت؛ أنت قتلتها، لماذا لا تعترف؟ اعترف أنك قتلتها، قلها يا مخادع، قلها يا مجنون ..

- أنا لست مجنونا، ولست مخادعا ..

إذن واجه نفسك ..

- نعم، لقد ماتت أمي بالأمس، ماتت .. وأنا السبب في موتها، لكن أقسم أني سأتغير من أجلها ..

لماذا لا تعترف أنه لا مغزى من حياتك وتغرز هذا السكين في صدرك؟

- لن أفعل، أنا سأحيا، وإذا أخبرني أحدهم أني فاشل سأ ...

ماذا؟ ستقتله؟!

- لا، أمي لم تربي قاتلا، سأثبت لكم أني لست فاشلا، سأثبت لأمي .. ولك .. سأبدأ من جديد، وأتغير حقا!

أنا لن أموت اليوم .. إذا متُ فمن سيدفن أمي؛ ويصلي عليها، ويدعو لها؟!

ΔΔΔ

للتواصل مع الكاتب